مواقف وبطولات

من ١٠ : ١٤ سنة

بَلاطُ الشُّهَداء

المُسْلِمون على أبْوابِ «بَارِيس»

كتبها
أحمد تمام

رسمها
محمد نبيل

obeikandl.com

شركة سفير

تمام ، أحمد

معارك فاصلة «بَلاطُ الشُّهَداءِ»/ أحمد تمام

١٢ ص، ٢٣ × ٢٣ سم

١- معارك فاصلة «بَلاطُ الشُّهَداءِ»

٢- الأطفال - تعليم

أ- تمام ، أحمد ب- العنوان

ديوى/٩٥٣

جميع الحقوق محفوظة لشركة **سفير**

رقم الإيداع: ١٣٩٥٩ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولى: ISBN: 977 - 361 - 285 - 6

عبرَ المُسلِمُونَ بقيادَةِ «طَارِقِ بْنِ زِيَاد» إلَى بلادَ الأَنْدَلُسِ (إسْبَانْيَا وَالبُرْتُغَالَ) فِى السَّنَّةِ الثَّانيةِ والتِّسْعينَ مِنَ الهِجْرَةِ، وَأَقَامُوا بِهَا دَوْلَةً كَبيرَةً، كَانَتْ فَاتِحَةَ عَهْدٍ جَديدٍ لأَهَالِى تلكَ البِلادِ، فَتَخَلَّصُوا مِنْ ظُلْمِ القُوطِ الذينَ كَانَ يَحْكُمُونَ البِلادَ، وَتَمتَّعُوا بِالحُرِّيَّةِ والأَمْنِ، وَأَحَسُّوا بِالعَدْلِ والسَّلامِ، وَعَادَتْ إلَيْهِم كَرَامَتُهُم المَفْقُودَةُ وَثَرَوَاتُهم المَنْهُوبَةُ، وَهَبَّتْ عَلَى النَّاسِ رِيَاحِ الخَيْرِ وَالرَّخَاءِ بَعْدَ الفَقْرِ وَالمُعَانَاةِ.

وَبَعْدَ أَنِ اسْتَقَرَّ المُسْلِمُونَ الفَاتِحُونَ فِى الأَنْدَلُسِ، رَغِبُوا فِى نَشْرِ الإِسْلامِ خَارِجَ حُدُودِهِ، وَتَعْرِيفِ الأُمَمِ وَالشُّعُوبِ بِهَذَا الدِّينِ العَظِيمِ، فَقَامُوا بِعُبُورِ جِبَالِ «أَلْبِرْت» (البَرَانِس) لِفَتْحِ بِلادِ «غَالَة» (فَرَنْسَا حَالِيا).

وَقَدْ حَاوَلَ المُسْلِمُونَ كَثِيرًا فَتْحَ هَذِهِ البِلادِ وَكَانَتْ تَحْتَ حُكْمِ «الفرنْج»، وَقَدْ بَدَأَ النَّشَاطُ المُنَظَّمُ لِنَشْرِ الإِسْلامِ فِى هَذِهِ البِلادِ فِى عَهْدِ الخَلِيفَةِ العَادِلِ «عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ»، وَكَانَ قَدْ عَيَّنَ عَلَى الأَنْدَلُسِ «السَّمْحَ بْنَ مَالِكٍ الخَولانى» سَنَةَ مِائَةٍ مِنَ الهِجْرَةِ، وَلَمْ يَكَدْ «السَّمْحُ» يَسْتَقِرُّ فِى الوِلايَةِ حَتَّى بَادَرَ بِالنُّهُوضِ فِى نَشْرِ الإِسْلامِ فِيمَا وَرَاءَ جِبَالِ «أَلْبِرْت»، وَتَوَجَّهَ عَلَى رَأْسِ جَيْشِهِ إلَى هَذِهِ البِلادِ، وَتَوَغَّلَ فِيهَا حَتَّى وَقَفَ بِأَبْوَابِ «طُولُوشَة» (تُولُوز الآن) عَاصِمَةِ دُوقِيَّةِ «أَكْوِيتَانْيَا»، وَقَدْ أَفْزَعَ هَذَا التَّقَدُّمُ السَّرِيعُ حُكَّامَ هَذِهِ المَنْطِقَةِ، فَجَمَعُوا حُشُودًا ضَخْمَةً لِمُوَاجَهَةِ انْتِصَارَاتِ المُسْلِمِينَ، وَالْتَقَى الطَّرَفَانِ فِى مَوْقِعَةٍ عَنِيفَةٍ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ «طُولُوشَةَ»، سَالَتْ فِيهَا الدِّمَاءُ غَزِيرَةً، وَكَثُرَ القَتْلُ فِى الجَيْشَيْنِ، وَأَبْدَى المُسْلِمُونَ رَغْمَ قِلَّتِهِمْ شَجَاعَةً خَارِقَةً، وَتَأَرْجَحَ النَّصْرُ بَيْنَ الفَرِيقَيْنِ.

وَفِى أَثْنَاءِ سَيْرِ المَعْرَكَةِ سَقَطَ «السَّمْحُ بْنُ مَالِكٍ» شَهِيدًا مِنْ فَوْقِ جَوَادِهِ فَاخْتَلَّ نِظَامُ جَيْشِهِ، وَوَقَعَ الاضْطِرَابُ فِيهِ، غَيْرَ أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ الغَافِقِىَّ أَحَدَ القَادَةِ البَارِزِينَ تَمَكَّنَ مِنْ جَمْعِ بَقِيَّةِ الجَيْشِ وَالعَوْدَةِ بِهِ إِلَى الأَنْدَلُسِ بِأَقَلِّ الخَسَائِرِ المُمْكِنَةِ.

وَلَمْ تَمْنَعْ هَذِهِ الهَزِيمَةُ المُسْلِمِينَ فِى الأَنْدَلُسِ مِنْ إِعَادَةِ العَوْدَةِ ثانيا، فَنَهَضَ «عَنْبَسَةُ بْنُ سُحَيْمٍ الكَلْبِىُّ» لِلْفَتْحِ فِى السَّنَةِ السَّادِسَةِ بَعْدَ المِائَةِ مِنَ الهِجْرَةِ، وَكَانَ قَدْ تَوَلَّى وِلايَةَ الأَنْدَلُسِ بَعْدَ اسْتِشْهَادِ «السَّمْحِ بْنِ مَالِكٍ»، وَعُرِفَ بِالكَفَاءَةِ وَالأَمَانَةِ وَالدِّينِ.

عَبَرَ «عَنْبَسَةُ» جِبَالَ «أَلْبِرْت»، وَاتَّجَهَ شَمَالا حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَدِينَةِ «صَانِص» التِى تَقَعُ عَلَى أَحَدِ فُرُوعِ نَهْرِ «السِّين»، وَتَبْعُدُ عَنْ جَنُوبِ بَارِيسَ بِنَحْوِ سَبْعِينَ كِيلُومِتْرًا. وَكَانَ هَذَا أَقْصَى حَدٍّ بَلَغَتْهُ قُوَّاتُ الإِسْلامِ فِى أُورُبَّا الغَرْبِيةِ، وَانْفَرَدَ «عَنْبَسَةُ بْنُ سُحَيْمٍ» مِنْ بَيْنِ الفَاتِحِينَ المُسْلِمِينَ بِهَذَا.

وَكَانَتْ سِيَاسَةُ «عَنْبَسَةَ» الحَكِيمَةُ وَرِفْقُهُ وَلِينُهُ وَحُسْنُ مُعَامَلَتِهِ لِلسُّكَّانِ عَامِلا فِى تَقْوِيَةِ سُلْطَانِ المُسْلِمِينَ فِى جَنُوبِىِّ فَرَنْسَا. غَيْرَ أَنَّ هَذَا النَّجَاحَ العَظِيمَ لَمْ يُكْتَبْ لَهُ الاسْتِمْرَارُ، فَفِى طَرِيقِ العَوْدَةِ دَاهَمَتْ «عَنْبَسَةَ» جُمُوعٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الفِرِنْجِ، الْتَحَمَتْ مَعَهُ فِى مَعْرَكَةٍ حَاسِمَةٍ، أُصِيبَ خِلالَهَا بِجِرَاحٍ بَالِغَةٍ تُوُفِّىَ عَلَى أَثَرِهَا فِى شَعْبَانَ مِنْ سَنَةِ مِائَةٍ وَسَبْعٍ، وَتَوَلَّى عُذْرَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الفِهْرِىُّ مُهِمَّةَ الرُّجُوعِ بِالجَيْشِ إِلَى دَاخِلِ الأَنْدَلُسِ.

ثُمَّ تَوَالَى عَلَى حُكْمِ الأَنْدَلُسِ عَدَدٌ مِنَ الوُلاةِ لَمْ يَنْجَحُوا فِى إِدَارَةِ البِلادِ بِكَفَاءَةٍ عَالِيَةٍ، وَلَمْ يَجِدِ الخَلِيفَةُ الأُمَوِىُّ «هِشَامُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ» مَنْ أَحَقَّ بِمَنْصِبِ وِلايَةِ الأَنْدَلُسِ مِنْ «عَبْدِ الرَّحْمَنِ الغَافِقِىِّ»، فَعَيَّنَهُ وَالِيًا عَلَيْهَا فِى سَنَةِ ثَلاثَ عَشْرَةَ وَمِائَةٍ مِنَ الهِجْرَةِ. وَلَمْ يَكُنِ «الغَافِقِىُّ» غَرِيبًا عَنْ بِلادِ «الأَنْدَلُسِ»، فَقَدْ عَاشَ فِيهَا زَمَنًا طَوِيلا، عَرَفَ خِلالَهَا كُلَّ كَبِيرَةٍ وَصَغِيرَةٍ فِيهَا، وَعَرَفَهُ النَّاسُ رَجُلا صَادِقَ الإِيْمَانِ كَرِيمَ الخُلُقِ، لَيِّنًا رَفِيقًا، بَارِعًا فِى شُئُونِ الحُكْمِ والإِدَارَةِ، وَقَائِدًا عَظِيمًا فِى مَيَادِينِ الحَرْبِ وَالقِتَالِ.

وَقَدِ اسْتَقْبَلَتِ الأَنْدَلُسُ نَبَأَ تَعْيِينِ «الغَافِقِىِّ» بِالفَرَحِ وَالسُّرُورِ، وَرَحَّبَتْ بِوِلايَتِهِ، وَاسْتَبْشَرَ النَّاسُ خَيْرًا بِسِيَاسَتِهِ وَإِدَارَتِهِ. وَكَانَ «الغَافِقِىُّ» عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ النَّاسِ بِهِ، فَبَدَأَ وِلايَتَهُ بِزِيَادَةِ الأَقَالِيمِ المُخْتَلِفَةِ لِلوُقُوفِ عَلَى مُشْكِلاتِهَا، فَنَظَّمَ شُئُونَهَا، وَرَتَّبَ أَحْوَالَهَا، وَعَهِدَ بِإِدَارَتِهَا إِلَى أَهْلِ الكَفَاءَةِ وَالخِبْرَةِ، وَقَضَى عَلَى الفِتَنِ وَالمَظَالِمِ، وَرَدَّ إِلَى النَّاسِ حُقُوقَهُمُ المُغْتَصَبَةَ وَعَامَلَهُمْ بِالرِّفْقِ والإِحْسَانِ، وَخَفَّفَ عَلَيْهِمِ الضَّرَائِبَ، وَسَاسَهُمْ بِالعَدْلِ وَالمُسَاوَاةِ دُونَ تَفْرِقَةٍ أَوْ تَمْيِيزٍ.

ثُمَّ اتَّجَهَ إِلَى الجَيْشِ فَأَصْلَحَ هَيَاكِلَهُ، وَأَعَادَ تَنْظِيمَهُ، وَحَشَدَ لَهُ أَقْوَى الجُنْدِ، وَأَكْثَرَهُمْ رَغْبَةً فِى الجِهَادِ، وَعَمِلَ عَلَى بَثِّ رُوحٍ جَدِيدَةٍ مِنَ البَسَالَةِ وَالفِدَاءِ، وَاخْتَارَ لَهُمْ مِنَ القَادَةِ الأَكْفَاءِ مَنْ يُحْسِنُونَ قِيَادَتَهُمْ وَتَدْرِيبَهُمْ عَلَى فُنُونِ القِتَالِ.

وَبَعْدَ أَنْ أَتَمَّ «الغَافِقِيُّ» اسْتِعْدَادَاتِهِ وَاطْمَأَنَّ إِلَى قُدْرَةِ قُوَّاتِهِ خَرَجَ بِهِمْ فِى أَوَائِلِ السَّنَةِ الرَّابِعَةَ عَشَرَةَ بَعْدَ المِائَةِ مِنَ الهِجْرَةِ، وَكَانَ عَدَدُ قُوَّاتِهِ نَحْوَ مِائَةِ أَلْفِ جُنْدِىٍّ، وَكُلُّهُمْ عَزْمٌ وَإِصْرَارٌ عَلَى نَشْرِ الإِسْلَامِ فِى فَرَنْسَا، وَتَخْلِيصِ أَهَالِى تِلْكَ البِلَادِ مِنَ الظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ، وَإِشَاعَةِ الأَمْنِ وَالسَّلَامِ وَالعَدْلِ وَالمُسَاوَاةِ بَيْنَهُم.

عَبَرَ «الغَافِقِىُّ» بِجَيْشِهِ جِبَالَ «أَلْبِرت» إِلَى «فَرَنْسَا» وَاتَّجَهَ إِلَى مَدِينَةِ «آرَالَ» الوَاقِعَةِ عَلَى نَهْرِ «الرُّون»، وَكَانَتْ قَدْ خَرَجَتْ عَنْ طَاعَةِ المُسْلِمِينَ، وَتَوَقَّفَتْ عَنْ دَفْعِ الجِزْيَةِ، فَهَاجَمَهَا «الغَافِقِىُّ»، وَاسْتَوْلَى عَلَيْهَا بَعْدَ مَعْرَكَةٍ عَنِيفَةٍ نَشِبَتْ عَلَى ضِفَافِ النَّهْرِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الدُّوقِ «أُودُو» الذِى يَحْكُمُ تِلْكَ المَنْطِقَةَ.

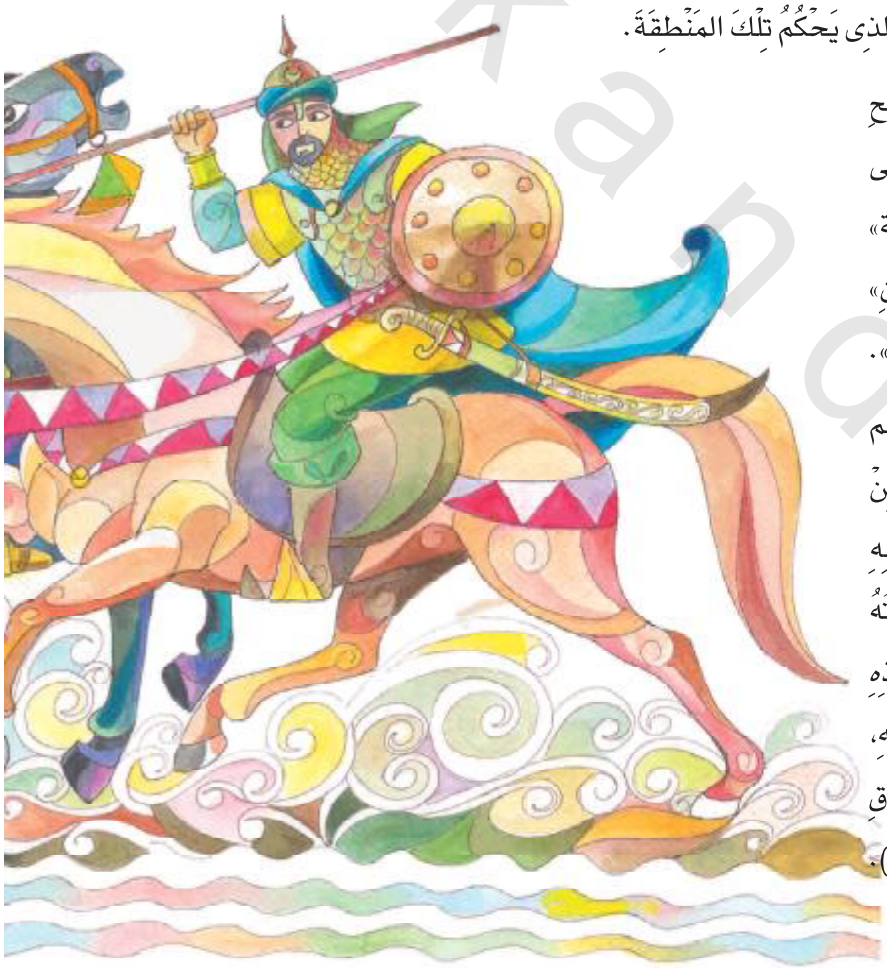

وَبَعْدَ ذَلِكَ اتَّجَهَ بِجَيْشِهِ نَحْوَ الغَرْبِ لِفَتْحِ إِمَارَةِ «أَقْطَانِيَةَ» (أكويتين) وَكَانَتْ تَمْتَدُّ فِى ذَلِكَ الحِينِ بَيْنَ «الرُّونِ» شَرْقًا وَخَلِيجِ «بَسْكُونِيَّة» غَرْبًا، وَبَيْنَ نَهْرِ «اللُّوَارِ» شَمَالا وَنَهْرِ «الجَارُونِ» جَنُوبًا وَكَانَتْ تُعَدُّ مِنْ أَعْظَمِ إِمَارَاتِ «غَالَةَ».

وَكَانَ المُسْلِمُونَ فِى سَيْرِهِم تَمْتَلِئُ قُلُوبُهُم حَمَاسًا وَإِيمَانًا، فَهُمْ فِى مُهِمَّةٍ مُقَدَّسَةٍ مِنْ أَجْلِ نَشْرِ الإِسْلَامِ، وَكَانَ الجَيْشُ فِى نِظَامِهِ وَحَرَكَتِهِ يُثِيرُ الرَّهْبَةَ فِى النُّفُوسِ وَكَانَتْ سُمْعَتُهُ فِى إِقَامَةِ العَدْلِ وَالمُسَاوَاةِ تَجْعَلُ أَهَالِى هَذِهِ البِلَادِ لا يَهْتَمُّونَ بِمُقَاوَمَتِهِ وَالوُقُوفِ فِى وَجْهِهِ، وَلَمْ يَجِدِ المُسْلِمُونَ صُعُوبَةً فِى التَّقَدُّمِ وَالاخْتِرَاقِ حَتَّى أَصْبَحُوا عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ «بَرْدَال» (بُرْدُو).

وَهَبَّ «أُودُو» دُوقُ «أَقْطَانية» لإيقَافِ زَحْفِ المُسْلِمِينَ، وَإِنْقَاذِ إِمَارَتِه مِنَ الوُقُوعِ فِى يَدِ «الغَافِقِىِّ»، فَجَمَعَ أَعْدَادًا كَبِيرَةً مِنَ الجُنْدِ فِى مُحَاوَلَةٍ بَائِسَةٍ لِمَنْعِ المُسْلِمِينَ مِنَ التَّقَدُّمِ، وَالْتَقَى الفَرِيقَانِ عَلَى ضِفَافِ نَهْرِ «الدَّرْدُونِ» عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ مُلْتَقَاهُ بِنَهْرِ «الجَارُونِ».

كَانَ اللِّقَاءُ حَاسِمًا، وَلَمْ تَسْتَطِعْ قُوَّاتُ «أُودُو» أَنْ تَثْبُتَ أَمَامَ المُسْلِمِينَ أَوْ تُجَارِيهِم فِى شَجَاعَتِهِم وَحُسْنِ تَحَرُّكِهِم، فَحَلَّتْ بِهِمْ هَزِيمَةٌ قَاسِيَةٌ، وَتَمَزَّقَ جَيْشُ «أُودُو»، وَاضْطُرَّ إِلَى الفِرَارِ نَحْوَ الشَّمَالِ، تَارِكًا لِلمُسْلِمِينَ عَاصِمَتَهُ «بَرْدَال».

وَقَدْ مَكَّنَ هَذَا النَّصْرُ المُسْلِمِينَ مِنَ التَّحَرُّكِ فِى أَرْجَاءِ «أَقْطَانِيَّةَ»، وَفَتْحِ البِلَادِ، حَتَّى سَيْطَرُوا تَمَامًا عَلَى هَذِهِ المَنْطِقَةِ، وَامْتَلأَتْ أَيْدِيهِم بِالغَنَائِمِ التِى ظَفِروا بِهَا فِى مَعَارِكِهِم، ثُمَّ تَوَجَّ المُسْلِمُونَ انْتِصَارَاتِهِمْ بِفَتْحِ مَدِينَةِ «تُور» وَهِىَ مِنْ أَعْظَمِ مُدُنِ «فَرَنْسَا» آنَذَاكَ وَتَقَعُ عَلَى نَهْرِ «اللُّوَارِ»، وَقَدْ أَحْدَثَ هَذَا الفَتْحُ دَوِيا عَظِيمًا فِى «فَرَنْسَا» وَأُورُبَّا كُلِّهَا.

وَقَفَ «أُودُو» دُوقُ «أَقْطَانية» عَاجِزًا عَنْ مُوَاجَهَةِ المُسْلِمِينَ فَلَجَأَ إِلَى خَصْمِهِ اللَّدُودِ «شَارْلُ مَارْتِل» أَقْوَى أُمَرَاءِ مَمْلَكَةِ الفِرَنْج فِى «فَرَنْسَا»، وَطَلَبَ مِنْهُ العَوْنَ وَالمُسَاعَدَةَ، وَالوُقُوفَ ضِدَّ المُسْلِمِينَ، فَلَبَّى «شَارْل مَارْتل» النِّدَاءَ وَأَسْرَعَ بِنَجْدَتِهِ وَكَانَ مِنْ قَبْلُ لا يُعْنَى بِتَحَرُّكَاتِ المُسْلِمِينَ فِى جَنُوبِ «فَرَنْسَا»،

نَظَرًا لِلْخِلافِ الذِى كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ «أُودُو» دُوق «أَقْطَانْيَا»، وَوَجَدَ فِى طَلَبِ النَّجْدَةِ فُرْصَةً لِمدِّ نُفُوذِهِ إِلَى هَذِهِ المَنْطِقَةِ التِى كَانَتْ بِيَدِ غَرِيمِهِ، وَوَقْفِ الفَتْحِ الإِسْلامِىِّ الذِى أَصْبَحَ قَرِيبًا مِنْهُ.

وَكَانَ «شَارْلُ مَارْتِل» قَدْ بَدَأَ فِى إِعْدَادِ جَيْشِهِ لَمَّا تَرَامَتْ إِلَيْهِ أَنْبَاءُ انْتِصَارَاتِ المُسْلِمِينَ، فَأَخَذَ فِى جَمْعِ الجُنْدِ وَالفُرْسَانِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، جَاءُوه مِنْ أَنْحَاءِ أُورُبَّا، وَنَجَحَ فِى حَشْدِ جَيْشٍ ضَخْمٍ مِنَ الفِرِنْجِ وَمُخْتَلَفِ العَشَائِرِ الجِرْمَانِيَّةِ المُتَوَحِّشَةِ، وَالعِصَابَاتِ المُرْتَزِقَةِ التِى تَعِيشُ فِيمَا وَرَاءَ نَهْرِ «الرَّيْن»، وَضَمَّ هَذَا الجَيْشُ عَدَدًا كَبِيرًا مِنَ الجُنُودِ الأَجْلاف، نِصْفَ عُرَاةٍ، يَلْبَسُونَ جُلُودَ الذِّئَابِ وَتَتَسَدِلُ شُعُورُهم عَلَى أَكْتَافِهِم العَارِيَةِ .. وَهَكَذَا وُفِّقَ «شَارْل» فِى تَوْحِيدِ القُوَى النَّصْرَانِيَّةِ فِى «فَرَنْسَا» لِلْوُقُوفِ فِى وَجْهِ المُسْلِمِينَ.

وَبَعْدَ أَنْ أَتَمَّ «شَارْلُ مَارْتِل» اسْتِعْدَادَاتِه، تَحَرَّكَ بِجَيْشِهِ الجَرَّارِ الذِى يَزِيدُ فِى عَدَدِهِ عَلَى جَيْشِ المُسْلِمِينَ، يَهُزُّ الأَرْضَ هَزَا، وَتُرَدِّدُ سُهُولُ «فَرَنْسَا» صَدَى أَصْوَاتِ الجُنُودِ وَصَيْحَاتِهِم الهَمَجِيَّةِ، وَتَعْكِسُ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ صَفَحَاتِ سُيُوفِهِم اللامِعَةِ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى مُرُوجِ نَهْرِ «اللُّوَارِ» الجَنُوبِيَّةِ.

انْتَهَى الجَيْشُ الإِسْلامِىُّ فِى زَحْفِهِ إِلَى السَّهْلِ المُمْتَدِّ بَيْنَ مَدِينَتَىْ «بُوَاتِييه» وَ«تُور» بَعْدَ أَنِ اسْتَوْلَى عَلَى المَدِينَتَيْن، وَفِى ذَلِكَ الوَقْتِ كَانَ جَيْشُ «شَارْل مَارْتِل» قَدْ وَصَلَ إِلَى الضِّفَّةِ اليُمْنَى لِنَهْرِ «اللُّوَار»، دُونَ أَنْ يَنْتَبِهَ المُسْلِمُونَ بِقُدُومِ طَلائِعِهِ.

وَلَمَّا تَرَامَتِ الأَنْبَاءُ إِلَى «الغَافِقِىِّ» بِهَذَا الحَشْدِ، أَرْسَلَ طَلائِعَهُ لِمَعْرِفَةِ الأَمْرِ وَاسْتِكْشَافِ وَضْعِ هَذَا الجَيْشِ، وَلَمْ تُحْسِنْ هَذِهِ الطَّلائِعُ تَقْدِيرَ جَيْشِ العَدُوِّ، وَقَدَّمَتْ إِلَى «الغَافِقِىِّ» مَعْلُومَاتٍ تَسْتَقِلُّ عَدَدَهُ وَتَسْتَخِفُّ بِهِ فَعَزَمَ «الغَافِقِىُّ» عَلَى اقْتِحَامِ نَهْرِ «اللُّوَارِ» لِمُلاقَاةِ عَدُوِّهِ قَبْلَ أَنْ يَسْتَكْمِلَ اسْتِعْدَادَهُ، لَكِنَّهُ فُوجِئَ بِقُوَّاتٍ جَرَّارَةٍ وَأَعْدَادٍ هَائِلَةٍ مِنَ الجُنْدِ لَمْ يَكُنْ يَتَوَقَّعُهَا، تَفُوقُ جَيْشَ المُسْلِمِينَ فِى الكَثْرَةِ، فَعَادَ «الغَافِقِىُّ» إِلَى السَّهْلِ الوَاقِعِ بَيْنَ «تُور» وَ«بُوَاتِييه»، وَبَدَأَ فِى

تَنْظِيمِ قُوَّاتِه انتظَارًا لِلْمَعْرَكَةِ الفَاصِلَةِ وإِعْدَادِ خُطَّةِ الحَرْبِ لمُوَاجَهَةِ جَحَافِلِ «شَارْل مَارتل» الهَائِلَةِ وَحَمَاسِهِم المُتَدَفِّقِ، وَظَمَئِهِم إِلَى القِتَالِ.

كَانَ جَيْشُ «الغَافِقِيِّ» قَدْ قَطَعَ آلافَ الأَمْيَالِ مُنْذُ أَنْ خَرَجَ مِنَ الأَنْدَلُسِ، فَقَدْ خَاضَ الجُنُودُ مَعَارِكَ مُتَّصِلَةً أَنْهَكَتْ قُوَاهُم، وَأَتْعَبَهُم السَّيْرُ وَالحَرَكَةُ فِى السُّهُولِ وَالجِبَالِ، وَقَلَّتْ أَعْدَادُهُم بِسَبَبِ تَخَلُّفِ جَمَاعَاتٍ مِنْهُمْ لِحِمَايَةِ المُدُنِ التِى فَتَحُوهَا، وَفِى الوَقْتِ نَفْسِهِ لَم تَصِلْهُم إِمْدَادَاتٌ تُجَدِّدُ حَيَوِيَّةَ الجَيْشِ، وَتُنَشِّطُ مِنْ حَرَكَتِه، وَتُعِينُهُ عَلَى أَدَاءِ مَهَامِّه، فَالمَسَافَةُ كَانَتْ قَدْ طَالَتْ بَيْنَهم وَبَيْنَ عَاصِمَةِ الخِلافَةِ فِى «دِمَشْقَ».

جَالَتْ هَذِهِ الأَفْكَارُ فِى عَقْلِ القَائِدِ الجَسُورِ، وَرَاحَ يُفَكِّرُ فِى التَّغَلُّبِ عَلَى هَذِهِ الصُّعُوبَاتِ، وَلَمْ يَعُدْ أَمَامَهُ سِوَى حُسْنِ الإِعْدَادِ وَالتَّدْرِيبِ وَرَفْعِ مَعْنَوِيَّاتِ الجُنْدِ، وَكَانَ شَهْرُ رَمَضَانَ قَدِ اقْتَرَبَ حُلُولُهُ فَاسْتَغَلَّ هَذِهِ المُنَاسَبَةَ فِى إِشْعَالِ حَمَاسِهِم بِذِكْرَيَاتِ النَّصْرِ التِى حَدَثَتْ فِى هَذَا الشَّهْرِ مِثْلَ غَزْوَةِ «بَدْرٍ» وَفَتْحِ «مَكَّةَ» وَأَنَّهُم فِى مُهِمَّةٍ مُقَدَّسَةٍ لِنَشْرِ

الإسْلامِ وَأَخْلاقِهِ السَّمْحَةِ، وَتَطْبِيقِ شَرَائِعِهِ العَادِلَةِ بَيْنَ أَهَالِي هَذِهِ البِلادِ.

عَبَرَتْ قُوَّاتُ «شَارْلَ مَارْتِل» نَهْرَ «اللُّوَار» إِلَى الضِّفَّةِ اليُسْرَى، وَعَسْكَرَتْ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنَ المُسْلِمِينَ، ثُمَّ بَادَرَتْ بِالهُجُومِ الكَاسِحِ، فُرْسَانٌ تَتَقَدَّمُ، وَسِهَامٌ تُرْمَى، وَصَيْحَاتٌ تَعْلُو، وَأَعْدَادٌ كَالمَطَرِ مِنَ الجُنُودِ تَزْحَفُ نَحْوَ المُسْلِمِينَ وَتَلْتَحِمُ بِهِ، وَاسْتَقْبَلَ المُسْلِمُونَ هَذَا الهُجُومَ بِثِيَابٍ رَاسِخٍ، وَشَجَاعَةٍ نَادِرَةٍ وَصُمُودٍ رَائِعٍ أَمَامَ جَيْشٍ يَفُوقُهُ عُدَّةً وَعَتَادًا.

وَانْقَضَى اليَوْمُ الأَوَّلُ مِنَ المَعْرَكَةِ الذِي كَانَ فِي أَوَاخِرِ شَعْبَانَ مِنْ سَنَةِ مِائَةٍ وَأَرْبَعَةَ عَشَرَ مِنَ الهِجْرَةِ دُونَ تَحْقِيقِ نَصْرٍ حَاسِمٍ، فَالمُسْلِمُونَ عَلَى قِلَّتِهِمْ نَجَحُوا فِي مُوَاجَهَةِ جَيْشِ «شَارْل مَارْتِل» بِأَعْدَادِهِ الغَفِيرَةِ، وَإِيقَافِ تَقَدُّمِهِمِ الهَمَجِيِّ العَاتِي.

وَحَلَّ شَهْرُ رَمَضَانَ بِالمُسْلِمِينَ وَهُمْ يُقَاتِلُونَ جُنُودَ الفِرِنْجِ الأَشِدَّاءِ قِتَالَ الأَبْطَالِ، دُونَ أَنْ يُؤَثِّرَ الصِّيَامُ فِي نَشَاطِهِمْ وَثَبَاتِهِمْ، وَكُلَّمَا انْقَضَى يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ المَعْرَكَةِ ازْدَادَ المُسْلِمُونَ ثَبَاتًا وَرُسُوخًا، وَاسْتَمَرَّتْ هَذِهِ الحَالُ تِسْعَةَ أَيَّامٍ دُونَ أَنْ يَتَمَكَّنَ أَحَدٌ مِنَ الفَرِيقَيْنِ مِنْ أَنْ يُلْحِقَ الهَزِيمَةَ بِالآخَرِ.

وَفِى اليَوْمِ العَاشِرِ أَصَرَّ المُسْلِمُونَ عَلَى تَحْقِيقِ النَّصْرِ مَهْمَا كَانَ الثَّمَنُ، فَدَخَلُوا المَعْرَكَةَ بِهِمَّةٍ عَالِيَةٍ، وَنَفْسٍ تُرِيدُ الشَّهَادَةَ، وَبَاعُوا أَرْوَاحَهُمْ غَالِيَةً فِى سَبِيلِ اللَّهِ، وَبَدَأَ الإِعْيَاءُ يَظْهَرُ عَلَى جُنُودِ الفِرِنْجِ، وَحَلَّ بِهِمُ التَّعَبُ، وَاقْتَرَبَ النَّصْرُ مِنَ المُسْلِمِينَ .. لَكِنْ حَدَثَ مَالَم يَكُنْ يَتَوَقَّعُهُ أَحَدٌ، فَقَدِ اخْتَرَقَتْ فِرْقَةٌ مِنْ فُرْسَانِ العَدُوِّ صُفُوفَ المُسْلِمِينَ، وَوَصَلَتْ ثُلْثَ التِى غَنِمُوهَا فِى أَثْنَاءِ حُرُوبِهِم.

وَارْتَدَّتْ فِرْقَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ المُسْلِمِينَ لِرَدِّ الهُجُومِ المُبَاغِتِ وَحِمَايَةِ مُؤَخِّرَتِهِمْ غَيْرَ أَنَّ هَذَا تَمَّ دُونَ نِظَامٍ، وَأَدَّى إِلَى خَلَلٍ وَاضْطِرَابٍ فِى الصُّفُوفِ، وَاتِّسَاعٍ فِى الثَّغْرَةِ التِى نَفَذَ مِنْهَا جُنُودُ الفِرِنْجِ.

كَانَتْ لَحَظَاتٍ حَاسِمَةً حَاوَلَ خِلالَهَا «الغَافِقِىُّ» أَنْ يَسْتَعِيدَ نِظَامَ جَيْشِهِ، وَيُمْسِكَ بِزِمَامِ الأُمُورِ، وَيَرُدَّ الحَمَاسَ إِلَى نُفُوسِ جُنْدِهِ، وَفِى غَمْرَةِ هَذَا أَصَابَهُ سَهْمٌ غَادِرٌ أَسْقَطَهُ شَهِيدًا فِى المَيْدَانِ، فَازْدَادَتِ الأُمُورُ اضْطِرَابًا وَسَادَ الجَيْشَ حَالَةٌ مِنَ الهَلَعِ وَالفَزَعِ، وَأَوْشَكَ أَنْ تَحُلَّ بِالمُسْلِمِينَ هَزِيمَةٌ مُدَوِّيَةٌ وَكَادَ المَوْقِفُ يَتَحَوَّلُ إِلَى كَارِثَةٍ مُحَقَّقَةٍ بَعْدَ أَنْ سَقَطَتْ أَعْدَادٌ كَبِيرَةٌ مِنَ المُسْلِمِينَ شُهَدَاء.

غَيْرَ أَنَّ مَنْ بَقِىَ مِنْ قَادَةِ الجَيْشِ تَدَارَكُوا الأَمْرَ سَرِيعًا، وَتَعَالَتْ صَيْحَاتُهُم تَدْعُو الجُنُودَ إِلَى الثَّبَاتِ، وَأَظْهَرَ المُسْلِمُونَ بُطُولاتٍ نَادِرَةً فِى هَذَا المَوْقِفِ العَصِيبِ، وَبَدَءُوا يَسْتَرِدُّونَ تَدْرِيجِيًا مَكَانَتَهُم عَلَى أَرْضِ المَعْرَكَةِ حَتَّى أَقْبَلَ اللَّيْلُ، وَتَوَقَّفَ القِتَالُ، وَعَادَ كُلٌّ مِنَ الفَرِيقَيْنِ إِلَى مُعَسْكَرِهِ.

انْتَهَزَ المُسْلِمُونَ فُرْصَةَ ظَلامِ اللَّيْلِ لالْتِقاطِ الأَنْفاسِ وَاتِّخاذِ القَرارِ المُناسِبِ وَكانُوا بَيْنَ أَمْرَيْنِ، إمَّا أَنْ يُواصِلُوا القِتالَ مَهْمَا كانَ الثَّمَنُ، وَإمَّا أَنْ يَنْسَحِبوا فِي ظَلامِ اللَّيْلِ حِفاظًا عَلَى قُوَّتِهِم، وَانْتِظارًا لِفُرْصَةٍ أُخْرَى يُعاوِدُونَ فِيهَا الفَتْحَ.

وَبَعْدَ مُناقَشاتٍ حامِيَةٍ اسْتَقَرَّ الرَّأْيُ عَلَى الانْسِحابِ المُنَظَّمِ، وَتَرْكِ مَا يُعَرْقِلُ الانْسِحابَ مِنَ الأَسْلابِ وَالغَنائِمِ، لأَنَّ هَذَا خَيْرٌ مِنْ هَزِيمَةٍ تَفْتِكُ بِالجَيْشِ وَتُمَزِّقُهُ تَمْزِيقًا بَعْدَ أَنْ حَلَّ بِهِ التَّعَبُ وَالإجْهادُ، وَفَقَدَ قائِدَهُ البَطَلَ الجَسُورَ.

أَشْرَقَ الصَّبَاحُ عَلَى الوَادِي، وَنَهَضَ «الفِرِنْجُ» لِمُواصَلَةِ القِتالِ، فَفُوجِئُوا بِالسُّكُونِ يُحِيطُ بِالمَكانِ، فَتَقَدَّمُوا عَلَى حَذَرٍ مِنْ خِيامِ المُسْلِمِينَ، فَإِذَا هِيَ خَالِيَةٌ مِنْهُمْ وَظَنُّوا أَنَّ فِي الأَمْرِ خُدْعَةً، وَتَمَهَّلُوا قَبْلَ أَنْ يَجْتَاحُوا المُعَسْكَرَ، فَلَمَّا اطْمَأَنُّوا إِلَى خُلُوِّهِ مِنَ المُسْلِمِينَ، قَامُوا بِاقْتِحَامِهِ، وَلَمْ يَجِدُوا فِيهِ سِوَى الغَنَائِمِ الهَائِلَةِ التِي غَنِمَهَا المُسْلِمُونَ فَنَهَبُوهَا، وَاكْتَفَى «شَارْل مَارْتِل» بِانْسِحَابِ المُسْلِمِينَ وَلَمْ يَجْرُؤ عَلَى مُطَارَدَتِهِم وَعَادَ بِجَيْشِهِ إِلَى الشَّمَالِ مِنْ حَيْث أَتَى.

وَقَدْ عُرِفَتْ هَذِهِ المَعْرَكَةُ بِبَلاطِ الشُّهَدَاءِ لِكَثْرَةِ مَا اسْتُشْهِدَ فِيهَا مِنَ المُسْلِمِينَ، وَبَعْدَ هَذِهِ المَوْقِعَةِ لَمْ تَسْنَحْ لِلْمُسْلِمِينَ فُرْصَةٌ أُخْرَى لِيَنْفُذُوا إِلَى قَلْبِ أُورُبَّا، فَقَدْ أُصِيبَ المُسْلِمُونَ فِي «الأَنْدَلُسِ» بِتَفَرِقَةِ الكَلِمَةِ وَاشْتِعَالِ المُنَازَعَاتِ، الأَمْرُ الذِي عَاقَهُم عَنْ مُوَاصَلَةِ الفُتُوحَاتِ، بَلْ وَالتَّخَلِّي عَمَّا فِي أَيْدِيهِم مِنَ المُدُنِ وَالبِلادِ.